صحراء هيوستن

الشاعر في رحلته الأخيرة

أكرم هنية

في عامه الأخير، كان محمود درويش يدرك أن مواجهته الحاسمة مع الموت قد دنت .

وفي عامه الأخير، كان محمود درويش يواصل مراوغة الموت. كان كمن يريد تأجيل مواجهة يشعر أنها قد تكون نهائية وقد تكون خاسرة، أو كان كمن يريد أن يستعد لهذه المواجهة، وهو مدجج بمزيد من الشعر والأغنيات.

في عامه الأخير، وفي ما ربما كان جزءاً من تكتيك المراوغة، طاف محمود درويش أصقاع الأرض، وقبل دعوات كثيرة كما لم يفعل من قبل، فتنقل بين فرنسا، وايطاليا، وكوريا الجنوبية، والبوسنة، ولبنان، وسورية، والمغرب، وتونس، والأردن، وفلسطين. يقرأ أشعاره في أمسيات حاشدة لحضور منبهرين ينتمون لجنسيات وثقافات ولغات متعددة، يتسلم جوائز وأوسمة، يوقع إصدارات جديدة له بلغات متعددة، يجري مقابلات صحافية وتلفزيونية، وربما كان يواصل ما جاء في مناشدته للحياة: "على مهلك، انتظريني إلى أن تجف الثمالة في قدحي"، وربما كان

صحافي و قاص وكاتب من فلسطين / رام الله

يتلفت حوله بين الحين والآخر ليرى إن كان نجح في تضليل الموت، وفي نفس الوقت وفي كل الأوقات كان محمود درويش يواصل، وبتكثيف استثنائي، ممارسة مهنته الوحيدة، وهوايته الأثيرة: كتابة القصائد.

إنه الشريان الأبهر، إنه الكولسترول

ومنذ أن أجمعت مراجعات طبية عديدة في بيروت وباريس خلال العام 2007 على حرج حالته الصحية، ودرويش يدرك انه أمام خيارات صعبة. فقبل عشر سنوات خضع لعملية جراحية كبرى في باريس بعد أن عانى انتفاخا وتمددا في القسم الأسفل من الشريان الابهر (الأورطي). وأجرى الطبيب جان ميشيل كورمييه، أكبر جراحي الشرايين في فرنسا، وطاقمه بنجاح عملية لإزالة الجزء المصاب واستبداله، ولكن وبعد العملية، وخلال فترة استيقاظ محمود من التخدير حدثت مضاعفات تناثر خلالها (الكولسترول)، الموجود بنسب عالية وغير عادية على جدران شرايين محمود، نحو الساقين محدثا عدة جلطات. فلجأ الأطباء إلى وقف عملية الاستيقاظ، وإلى تنويم محمود اصطناعيا وجعل الرئة والكلى تعمل على أجهزة لعدة أيام، عملوا خلالها على مراقبة والحد من تأثير الجلطات إلى أن استعاد محمود عافيته.

وكانت توصية كورمييه لمريضه، الذي احتاج شهرا من النقاهة بعد العملية، أن يقوم بفحص كل ستة شهور لشرايينه.

وفي مراجعات صيف العام 2007، أكد الطبيب الفرنسي لدرويش حرج وضعه الصحي، كان هناك انتفاخ وتمدد في القسم العلوي من الشريان الأبهر، وكانت الأرقام مقلقة للغاية وتقترب من الخطوط الحمر . . خطوط الموت. وحذر الطبيب الفرنسي مريضه الشاعر، وقد نمت بينهما علاقة صداقة ومودة، بأنه يحمل في صدره لغماً قد ينفجر في أي لحظة. كان يتحدث عن خطر حقيقي يبدو قريباً، ولكن ليس وشيكاً.

هل تؤبِّنونَنِي حياً؟

وفي عامه الأخير كانت مجموعة ضيقة من أصدقاء محمود تدرك حرج وضعه الصحي. لذلك لم يكن صدفة أن يصدر الرئيس محمود عباس في خريف العام 2007 مرسوماً بمنح محمود درويش أرفع الأوسمة الفلسطينية، لتضاف إلى أوسمة وجوائز أخرى قدمتها له الثورة

الفلسطينية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والعديد من دول العالم، ولم يكن صدفة أن تقر الحكومة، وفي نفس الفترة، اقتراحات لرئيسها سلام فياض بإصدار طابع بريدي يحمل صورة الشاعر والبدء بإعداد كتاب يتضمن مختارات من أشعاره ليكون جزءا من منهاج المدارس، وأن تقرر بلدية رام الله، التي يسكن الشاعر، ويعمل فيها منذ أواسط التسعينيات، إطلاق اسمه على ميدان رئيسي وجميل من ميادينها. وكان ذلك ينطلق من رغبة في أن يرى الشاعر بنفسه تكريم شعبه له.

وكان محمود درويش يتقبل هذه المبادرات بابتسامات مقتضبة ويعلق ساخرا : هل تؤبنونني حيا؟.

قال ذلك عدة مرات، كان منها عندما شارك في شهر تموز في إعلان نتائج مسابقة اختيار المكتب الهندسي الفائز بتصميم الميدان الذي سيحمل اسمه في رام الله، وكررها عندما سلمه سلام فياض قبل أسبوع من سفره إلى هيوستن مجموعة من الطوابع البريدية التي أصدرتها السلطة والتي تحمل صورته.

ولكنه، وفي أعماقه، كان يشعر بسعادة ما، وباعتزاز لم يكن ينفيه، وبارتياح لم يكن يخفيه.

الشعر . . المغامرة المستمرة

وربما كان محمود درويش واحداً من قلة نادرة أتيح لها أن تشهد في حياتها تكريس منجزها ودورها في التاريخ. ورحل وهو مطمئن وواثق أنه حفر موقعه المخلد كشاعر كبير في الذاكرة الفلسطينية والعربية والإنسانية.

وإذ أدرك محمود هذه الحقيقة منذ سنوات عديدة، فان ذلك لم يدفعه إلى الاسترخاء، فبالنسبة له كان الشعر مهنته الوحيدة، وفرحه الوحيد، وهمه الوحيد، وعزاءه الوحيد، وصديقه الوحيد، وبالنسبة إليه فإن منجزه الشعري بقي، وحتى اللحظة الأخيرة قصيدة غير مكتملة قابلة للحذف والإضافة والتطوير، واقتراحا فنيا متجددا، ونصا مفتوحا قابلا للمزيد من المغامرة الفنية المتجددة المستمرة.

وإذ كان محمود درويش يدرك منذ سنوات طويلة تكرسه كرمز وطني لفلسطين، فانه وإن كان يعتز بالطبع بهذا التحقق، فقد رفض بعناد أن يصبح أسيرا له. كان يدرك ويعتز بأنه منشد الشعب الفلسطيني، وراويته المعتمد، وعنوانه الثقافي المكرس، لكنه لم يقبل بان يختزل في سياق وإطار

ورمزية نمطية تقيده، وتحد من مغامرته الفنية وتملي عليه شروطها، كان يريد أن يكون التصفيق للشعر وليس للقضية.

وكانت مغامرته تتمثل في أن يطور قصيدته باستمرار. ونجح، حيث حاول كثيرون دون نجاح، في أن يجعل الشعر، وهو ديوان العرب الأثير، ممارسة إصغاء لدى القارئ والمستمع. إصغاء يتطلب ما هو نقيض الممارسة التقليدية. فالإصغاء عملية تتطلب من المتلقي انتباها ويقظة وإعمالا لملكات العقل، وتحضه على الدخول إلى جو القصيدة ومناخاتها، فيخرج من التجربة مسكونا في أعماقه بمداراتها، بدلا من البقاء أسيرا لاستخدام حاسة السمع في تلقي قصائد الحماسة والمديح والهجاء والغزل التي تثير حواس المستمع، وتدفعه إلى التصفيق الذي يختتم عملية تفقد مفاعيلها شيئا فشيئا بعد الخروج من "سوق عكاظ" القصيدة.

قصيدة فقصيدة، وديوانا فديوانا، وعاما فعاما كان درويش يطور، بدأب وعناد، الذائقة الفنية لدى جمهور الشعر العربي، وكان يشعر بالسعادة ومغامرته الصعبة والجسورة والمكلفة واقتراحاته الفنية المدهشة تنجح أمسية حاشدة بعد أخرى فتثبت "جدارتها" الجماهيرية باستقطاب الآلاف، ونموذج حداثته المتفرد يتكرس قصيدة إثر قصيدة.

وفي سنواته الأخيرة التي كثف فيها إنتاجه، ابتداءً بـ "جدارية" التي نشرها العام 99 بعد عمليته الجراحية في باريس. كان درويش يبلغ في شعره، وبشعره، ذرى لم يبلغها أحد من قبل، ويرتاد آفاقا لم تلامسها كلمات قصائد من قبل.

كان يطرح أسئلة الوجود والحياة والموت، كان يدير عبر قصائده حوارا متواصلا وعميقا مع الموت، لكن هذه القصائد كانت في الوقت نفسه أناشيد عذبة في مديح الحياة. وفي غمار الأسئلة الفلسفية الصعبة كان يوشح ملاحمه الشعرية، وبرفق، بالسؤال الفلسطيني مانحا هذا السؤال الدرامي بعدا إنسانيا وكونيا، كل ذلك دون أن يتنازل عن سر الشعر: موسيقاه في البنى والفضاءات المتعددة للقصيدة.

وكان يصهر كل هذا المزيج في قصيدة تتكثف وتتنقى وتصفو وترق وتشف فتشع كماسة نادرة، وتنجح في الوقت نفسه في بناء علاقة حميمة مع المتلقي الذي عمل دوريش، في عملية ذات بعد تفاعلي متبادل، وعلى مر عقود، على تطوير ذائقته الفنية ترافقا مع تطور القصيدة الدرويشية.

ولم يعد الكثيرون يشكون من صعوبة فهم بعض قصائد درويش، كما في مرحلة سابقة في

السبعينيات، وأصبح الآلاف يصغون باستمتاع في الأمسيات إلى "جدارية" التي مثّلت أعلى قمم القصيدة الدرويشية، والتي أفصح الشاعر في مناسبات عديدة، كانت آخرها في أمسية عشائه الأخير في هيوستن، إلى أنه يعتبرها أهم قصائده.

ولم يكن غريبا أن تصل قصيدة درويش المترجمة بسهولة إلى أصحاب ثقافات أخرى. وأن تسجل دواوينه الاثنا عشر، التي ترجمها صديقه الياس صنبر باقتدار إلى اللغة الفرنسية، أرقاما عالية في التوزيع في مجال الإصدارات الشعرية في فرنسا. وعندما ذهب الشاعر إلى مدينة ايطالية في حزيران 2008 لأمسية دعي إليها منذ شهور، فوجئ بان موعدها يتزامن مع موعد مباراة كرة قدم للمنتخب الايطالي في بطولة كأس الأمم الأوروبية. وعندما حاول إقناع منظمي الأمسية بتأجيلها قالوا له إن القاعة محجوزة والتذاكر مباعة.

غير أن درويش عندما ذهب إلى أمسيته فوجئ، وسر، بقاعة مزدحمة على آخرها بحضور ايطاليين فخاطبهم، وهو عاشق كرة القدم المتحمس: ما الذي أتى بكم؟ لو كنت مكانكم لفضلت مشاهدة المباراة، قبل أن يبدأ أمسية ناجحة.

و عندما توجه إلى أمسية أخرى في المسرح الروماني في مدينة ارل الفرنسية قبل أسبوعين من سفره إلى هيوستن، كان ألفا شخص بانتظاره وبينهم كتاب عالميون بارزون. وتجاوب الحضور مع شعره، وهو يلقيه بالعربية، في حين يقوم ممثل فرنسي مشهور بقراءته باللغة الفرنسية مرفوقا بأعواد الثلاثي جبران.

كان الشاعر يؤكد، ويتأكد، أن رهانه الشعري نجح في أن يخترق اللغات والثقافات والتجارب المختلفة وأن قصيدته "تأنسنت" و "تكوننت" دون أن تفقد تلك الفتنة الغامضة وذلك السحر الخفي للشعر ودون أن تفقد قدرتها على الوصول والتفاعل الحي مع قطاعات واسعة في عصر غير شاعري على الإطلاق.

والدور المباشر . .

ولأن الشعر هو وطنه البديل في غياب تحقق الوطن، ومنفاه الطوعي في متاهات المنافي القاتلة و "أندلسه" و "جليله" المفقودين في الغربة الرمادية، فقد كان، وهو الخجول بطبعه، صارما وحادا في الدفاع عن حقه في كتابة الشعر. وكان أصدقاؤه المقربون يحترمون خصوصياته

فيدركون انه يتوجب عدم الاتصال به في أوقات معينة لأنه، وهو القارئ النهم، منكب على القراءات المتعددة، أو على كتابة قصائد ديوان جديد.

غير أن إخلاص محمود درويش وتكريس جل وقته لمشروعه الشعري، وهو المشروع الذي يشكل بصورة أو بأخرى راية من رايات النضال الوطني، لم يكن يعني انقطاعا عن ممارسة دور فاعل ومباشر في الحياة السياسية الفلسطينية. لقد كان يؤمن بالمشروع الوطني الفلسطيني بملامحه التقدمية والديمقراطية كما جسدته الثورة الفلسطينية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وظل كذلك حتى اللحظة الأخيرة من حياته.

وكان حاضرا في اللحظات التاريخية، والمنعطفات الخطرة، للدفاع عن هذا المشروع بقلمه وصوته، كما انه لم يكن يتردد في معارضة ونقد ما كان يراه خطأ من مواقف أو ممارسات أو سياسات.

وكان في جوهر مواقفه وعلاقته مع السلطة يعتمد على استقلاليته عن مختلف الفصائل، وعلى سطوة منجزه الثقافي الذي كرسه منشداً للشعب وقضيته، ومنحه سلطة معنوية كبيرة، وأيضا على تعففه الدائم، وحتى اللحظة الأخيرة، عن قبول المناصب، حيث اختير في إحدى دورات المجلس الوطني عضوا في اللجنة التنفيذية للمنظمة دون أن يكون حاضراً، وكان العمل الذي يرتاح إليه أغلب سنوات حياته هو تحرير مجلة "الكرمل" الفصلية الثقافية التي أرادها منبراً ومختبراً للتعريف بثقافات أخرى ولتطوير الكتابات النقدية.

وأذكر أنه في ربيع 1994 كنت ومحمود ضمن أعضاء وفد رافق الرئيس الراحل ياسر عرفات في زيارة إلى جنوب إفريقيا للاحتفال بنهاية الحكم العنصري، وتنصيب نيلسون مانديلا رئيسا للبلاد. وخلال الرحلة استدعاني الرئيس إلى حيث كان يجلس في الطائرة الكبيرة لمناقشة تشكيل أول حكومة فلسطينية، فقد كان استحقاق العودة إلى الوطن يقترب، وكان مطلوباً وفق الاتفاقات أن تبدأ منظمة التحرير بتسمية الوزراء الذين سيتسلمون الحقائب المختلفة، وبعد مناقشة مجموعة من الأسماء بادرني أبو عمار: طبعاً محمود درويش يستلم (وزارة) الثقافة.

ترددت للحظات قبل أن أُجيب: أخ أبو عمار، في التاريخ الحديث لشعبنا رمزان أنت ومحمود درويش، أنت الرمز الوطني والسياسي وهو الرمز الثقافي، محمود سيعود إلى الوطن، وربما كان من الأفضل أن يواصل إنجازه الثقافي بعيداً عن تعقيدات المرحلة القادمة.

لم يناقش أبو عمار كثيراً، على غير عادته، لكنه، كعادته، لم يستسلم على الفور وقال في النهاية: لنسأل محمود.

وكان الاعتذار هو رد محمود.

ولم يؤثر ذلك على الإطلاق على العلاقة الوثيقة بين أبو عمار ومحمود الذي كان استقال قبل شهور من تلك الرحلة من عضوية اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية مسجلاً علناً انتقاداته وملاحظاته على اتفاق أوسلو. غير أن هذه الانتقادات، التي ثبتت صحتها، لم تجعل محمود درويش يتردد لحظة في أن يحزم حقائبه في المنفى الباريسي كي يعود إلى ما هوُمتاح من أرض الوطن.

دون إضافة أو حذف كلمة واحدة

وفي سنوات عديدة في أواخر الثمانينيات، وأوائل التسعينيات، كنت أحضر خلالها اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، بصفتي أمين سر اللجنة العليا للانتفاضة، أُتيح لي أن أُراقب عن كثب محمود درويش وهو يشارك في النقاشات، كان سياسياً بامتياز، وكانت مداخلاته، وهو أحد الأعضاء المستقلين في اللجنة، تتعلق بالشأن الوطني العام دون الانجرار لهموم وحسابات الفصائل التي كانت تجمع على احترامه. وأيضاً كان لدرويش إسهامه في صياغة الفكر السياسي الفلسطيني، خاصة عَبر صياغته "وثيقة الاستقلال".

وأذكر أنه عندما قدّم قانونيون إلى القيادة الفلسطينية، قبيل عقد دورة المجلس الوطني في العام 1988، مسودة أولى لصيغة "إعلان الاستقلال" تم رفضها على الفور، فقد كانت مطالعة قانونية جافة لا ترتقي إلى تاريخية اللحظة ومتطلباتها، فكان أن كلفت اللجنة التنفيذية والأمناء العامون للفصائل الشاعر بصياغة الإعلان، فباشر العمل دون توجيهات أو تحديدات معينة من اللجنة.

وأذكر عندما حضر محمود من باريس إلى تونس ذات يوم في خريف ذلك العام وهو يحمل مُسوّدة إعلان الاستقلال، وتوجه من المطار إلى بيت الصديق احمد عبد الرحمن حيث كنّا بانتظاره لتناول طعام الغداء. وعندما قرأ لنا نصه المدهش والمتوهج، التقطنا أنفاسنا ثم بدأنا نتمازح ونُناكف محمود: كم سيكون حجم التغيير الذي سيجريه أبو عمار على هذا النص الذي تحتشد فيه المواقف والرؤى؟ كم سيعمل قلمه الأحمر به؟ هل يقبل به الأمناء العامون للفصائل دون تغيير؟.

وعندما تقدم ياسر عرفات في الدقائق الأولى من فجر يوم 15 تشرين الثاني 1988 إلى منصة الخطابة في قاعة قصر الأمم في العاصمة الجزائرية ليتلو "إعلان الاستقلال" التاريخي فقد قرأ نص محمود درويش كما كتبه الشاعر دون إضافة أو حذف كلمة واحدة.

الطريق إلى هيوستن

كان محمود درويش يُدرك أن المراوغة مع الموت لا يمكن أن تطول، فقد كان يحمل في صدره لغماً قابلاً للانفجار في أي لحظة. كان عليه أن يختار بين انتظار انفجار اللغم أو الذهاب إلى جراحة خطرة.

لم يكن يتوقع أن يصغي الموت إلى مناشدته إياه في "الجدارية" لا تحدق يا قوي إلى شراييني لترصد نقطة الضعف الأخيرة"، ولم يكن يتوقع أن يستجيب الموت له فيكون:

"صديقاً طيباً" و"شفافاً بريداً واضحاً للغيب" و"قوياً، ناصع الفولاذ" و"فروسياً، بهياً، كامل الضربات" وأن يكون "صياداً شريفاً لا يصيد الظبي قرب النبع" وأن ينتظره "ريثما أنهي زيارتي القصيرة للمكان وللزمان".

وفي أوائل حزيران ذهب الشاعر إلى طبيبه الفرنسي مرة أخرى وكانت معه ليلى شهيد، الصديقة الذهبية، والملاك الحارس، واليقظ والصارم لمحمود خلال عمليته الأولى في العام 1998 وخلال مراجعاته الطبية المتعددة في باريس.

كان الطبيب قرأ جميع نتائج الصور والتحاليل الطبية، وتلفّت في بداية اللقاء نحو ليلى شهيد وسألها بالفرنسية: هل أقول له كل شيء؟.

فردّت ليلى بسرعة: بالطبع. ثم تلفّتت نحو محمود وأبلغته: سألني إن كان يجب إخبارك بكل شيء فقلت له: نعم.

واستمع الشاعر من طبيبه إلى تقديرات وخيارات مفزعة.

كان الطبيب يشعر بالقلق الشديد من سرعة انتفاخ وتمدد الشريان بأرقام تجعل من مجرد بقاء محمود حياً حتى تلك اللحظة معجزة من المعجزات، وتحدث عن احتمال انفجار الشريان في أية لحظة، كما تحدث عن مخاطر أي عملية جراحية يمكن إجراؤها. وأجاب بتفصيل مفزع عن أسئلة محمود التفصيلية، قال له إن الوضع في كلتا الحالتين سيئ وخطر.

فهناك خطر انفجار الشريان الذي قد يؤدي إلى الموت، أو إلى الإصابة بالشلل، كما أن للعملية مخاطرها، فقد يجد الجراحون أنه لا يمكن تغيير الجزء المصاب بسبب حجم الانتفاخ وطول التمدد، وقد يتناثر الكولسترول كما حدث العام 1998 ولكن، ولأن الخلل في القسم العلوي من الشريان الأبهر، فسيتناثر نحو منطقة النخاع الشوكي هذه المرة مسبباً الموت خلال ساعتين من الألم الشديد. . أو مسبباً الإصابة بالشلل.

سأله محمود: بماذا تنصحني؟

فأجاب الطبيب المخضرم: أنا لا أستطيع إجراء هذا النوع من العمليات، القرار يعود إليك. الجنرال ديغول عانى من نفس الحالة، وفضّل ألا يجري جراحة فتوفي نتيجة انفجار الشريان، ولكن القرار يعود لك وحدك.

وعندما ألحّ محمود في السؤال، رد كورمييه محاولاً انتقاء كلماته، وهو يدرك مكانة درويش، ويكنُّ له مودة فائقة: إنها حياتك، أنت وحدك القادر على اتخاذ القرار حول إجراء العملية، أنت وحدك تقرر. . ما هو الشيء الأكثر أهمية في حياتك الآن؟

فرد محمود: أن أنجز الديوان الذي أعمل عليه.

وقال له الطبيب: لذلك أقول لك أنت وحدك من يستطيع اتخاذ القرار.

وخلال الحوار قال له: إذا قررت إجراء العملية هناك جرّاح وحيد في العالم أنصحك بالذهاب إليه، إنه طبيب عراقي في أميركا، هو الدكتور حازم صافي في هيوستن. إنه الأفضل في العالم.

وفي الأسابيع التي تلت كان اسم حازم صافي يتردد على ألسنة أطباء آخرين تحادث معهم محمود في عمان وبيروت وأميركا وأجمعوا على أن هيوستن وصافي هما الخيار الأفضل. وفي تلك الأسابيع كان قلق أصدقائه المقربين يتصاعد، وكان كثيرون منهم يحثون محمود على استنفاد كل السبل الطبية، فيما كان آخرون يشددون على المخاوف من إجراء العملية. وإذ كان كثيرون يشعرون بالحرج أحيانا في مناقشة الموضوع بالتفصيل مع محمود بكل ما يعنيه من احتمالات، فقد كان يدرك تماما ما يدور في أنفسهم من هواجس ومخاوف عليه. وعندما أخذ صديقه غانم زريقات يُكثر ويُبكّر من اتصاله الصباحي بمحمود في عمان، رد عليه مرة ضاحكاً: اطّمَن، لساني عايش.

كان هاجس محمود وخوفه الأساسي أن يصاب بالشلل نتيجة العملية، وربما كان يخشى أن تعجز يده عن امتشاق قلمه لكتابة قصائده، وهو بالمناسبة لا يكتب إلا بقلم حبر سائل. وأسرّ لي ذات يوم في تموز الماضي: صرت كلما استيقظت في الصباح أشعر للحظات أنني مصاب بالشلل، وأنني عاجز عن إنزال قدميّ على الأرض.

وبدأ محمود مراوغة جديدة، بدأ يتحدث عن الذهاب إلى هيوستن لإجراء فحوصات فقط: ربما يكتشف الأطباء أن قلبي لا يتحمل إجراء هذه الجراحة، ربما حددوا موعداً للعملية بعد شهرين، ربما اكتشفوا أن لا فائدة ترجى من إجراء الجراحة.

وبدأ يقنع نفسه ويقنعنا بذلك: العملية ليست حتمية. لكن التواطؤ الصامت بيننا على قبول تفسيراته واحتمالاته كان يبدو فاضحاً وهشّاً أمام عينيه وعيوننا.

كان واضحا أنه قرر أن يستنفد الفرصة الطبية الأخيرة لتفادي الموت بدلا من من أن ينتظره.

وقد كانت 2008 سنة صعبة لمحمود توجه خلالها عدة مرات إلى الجديّدة وقضى هناك مدداً طويلة، فقد خضع شقيقه الأكبر لجراحة في الشرايين أيضاً، وبعده جاء دور شقيقه زكي ليجري جراحة مماثلة "فقد ورثت عن عائلتي خللاً في الشرايين وضغط دم مرتفع"، ثم جاء دور حورية أشهر الأمهات العربيات لتدخل المستشفى. وقال لي ونحن نتأهب للسفر إلى هيوستن: كانت سنة سيئة، أحمد ثم زكي ثم أمي . . والآن جاء دوري.

وفي أواخر شهر حزيران كان محمود درويش قد اتخذ قراره: الذهاب إلى هيوستن. وكان عدد من الأصدقاء يجمعون له المعلومات اللازمة، وبدأت الإجراءات العملية للسفر.

كان أن تفاهمنا أن أصحبه أنا وعلي حليلة، إلى هيوستون، وعلي، الإنسان الحسّاس، والمهندس والمقاول الناجح المقيم في عمّان، يرتبط بصداقة قديمة مع محمود، وتعمّقت مع إقامة محمود فترات طويلة في عمان خلال السنوات الأخيرة.

حدّد محمود المواعيد، اتفق على مراجعات مع الدكتور حازم صافي وطاقمه في 22 تموز. وقدم إلى رام الله في أوائل حزيران ليقدم طلب تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة. ووفق قوانين تم تفعيلها مع إنشاء وزارة الأمن الداخلي في الولايات المتحدة بعد "غزوات" أسامة بن لادن في مانهاتن وفرجينيا، فقد تم تشديد إجراءات منح التأشيرة لأعضاء منظمة التحرير الفلسطينية، حيث تحظر قوانين اعتمدت سابقاً دخولهم الأراضي الأميركية إلا باستثناء خاص.

وحث أبو مازن الأميركيين، وكذلك فعل سلام فياض، على سرعة إصدار التأشيرة، ووعدت وزارة الخارجية الأميركية، مؤكدة أنها تعرف مكانة درويش كـ "أيقونة" للشعب الفلسطيني، ببذل كل جهد لدى وزارة الأمن الداخلي لتسريع الإجراءات.

كانت خطة محمود، وقد جاء ثانية إلى رام الله في أواخر حزيران لحضور أمسيته الشعرية في أول تموز في قصر الثقافة، معلنا انطلاق احتفال المدينة بمئوية إنشاء بلديتها، أن يبقى فيها حتى العاشر من تموز حيث يكون قد حصل على التأشيرة فيسافر إلى فرنسا في 12 من الشهر نفسه لحضور أمسية في مدينة ارل ثم ينتظرني لألتحق به في باريس في 19 تموز لنتوجه بعدها بيوم إلى هيوستن حيث سيكون علي بانتظارنا .

وفي مساء اليوم نفسه الذي وصل فيه إلى عمان قادماً من رام الله بعد أن تأخرت الفيزا تلقى اتصالا بأنها أصبحت جاهزة. ولما كانت العودة إلى رام الله صعبة عليه، فقد أجّل مواعيد هيوستن إلى 30 تموز وقرر أن يعود إلى رام الله بعد أمسيته الفرنسية ليحصل على التأشيرة فنسافر معا من عمان إلى باريس في 28 تموز ومنها في 29 إلى هيوستن حيث سيكون علي قد عدل برنامجه ليكون بانتظارنا في الموعد الجديد. وعندما طلبت موظفة شركة الطيران في رام الله ولأغراض إصدار التذاكر أن نحدد موعدا افتراضيا ما لعودتنا من هيوستن يمكن تغييره في ما بعد اختار محمود تاريخ العاشر من آب . . . الذي سيصادف، بعد ذلك، اليوم التالي لرحيله.

وفي يوم ذهب في زيارة سريعة إلى الجديدة لوداع عائلته قبل أن يسافر إلى عمان، وليبلغ أمه أنه ذاهب للعلاج في أميركا، حيث قد يجري جراحة "بسيطة"، تساءلت حورية اليقظة اللمّاحة رغم تقدم سنوات العمر : إذا كانت بسيطة، لماذا تعملها في أميركا؟.

ولم يقل لي محمود ماذا كان جوابه.

القصيدة الأخيرة

وفي يوم من أواخر أيام حزيران اتصل محمود من عمّان: هل تريد قصيدة جديدة لنشرها في "الأيام"؟ . . سأجيء غداً.

وفي مساء اليوم التالي كان يسلمني مسوّدة قصيدته الأخيرة "لاعب النرد"، وكان واضحاً انه يعتزّ بها كثيراً، وفي حين بدأت بقراءتها قراءة أولى كان محمود منشغلاً بقراءة قصاصات

صحف على مكتبي ليبادرني بالسؤال :

ها . . ما رأيك؟

أصابتني القصيدة بالجزع، بَدت لي إعلانا عن توقع الموت وقبوله ونحن نتأهب للسفر إلى هيوستن، حاولت إعطاء انطباعات عامة، تحدثت عن ملحمية القصيدة. وتحدثت عن سطور ومقاطع قلت إنني أعتقد أنها ستصبح معروفة ومتداولة مثل :

" والوحي حظ المهارة إذ تجتهد " و " لا أقول السماء رمادية/ بل أُطيل التفرُّس في وردة/ وأقول لها : يا له من نهار! " و " السراب كتاب المسافر في البيد/ لولاه، لولا السراب لما واصل السير بحثا عن الماء " ، وطرحت أسئلة حول مقاطع أخرى، ثم قلت إن القصيدة تحتاج لقراءة معمقة.

عندما كرّر سؤالي هاتفياً صباح اليوم التالي، راوغته بالحديث مجدداً عن البنية الملحمية للقصيدة ثم جرؤت أن أقول له : ما الذي يحدث؟، إنها " أنتي " (نقيض وضد) الجدارية. في " الجدارية " قلت : هزمتك يا موت الفنون جميعها، وفي " لاعب النرد " تختتم بـ : من أنا لأخيب ظن العدم.

رد محمود سريعاً : لا أحد يستطيع قهر الموت.

أضفت بتردد : هل كتب محمود الشاعر " الجدارية " ، وتولّى محمود الإنسان كتابة " لاعب النرد " ؟

فردّ : يبدو كذلك.

وفي مساء اليوم نفسه والذي سبق موعد أمسيته في رام الله كان في " الأيام " ، يُدقق، وهو الشاعر الكبير، القصيدة بعد أن تمّت طباعتها تمهيداً لنشرها في " أيام الثقافة " ، ويُحدّثني والزميل غسان زقطان عن برنامج أمسيته. فمحمود درويش، وككل المبدعين الحقيقيين الكبار، يبقى حتى آخر لحظة يتهيّب أية أمسية ويتعامل معها وكأنه يواجه الجمهور لأول مرة. فكان يريد ترتيب موعد مع الثلاثي جبران للاتفاق حول تفاصيل مرافقتهم الموسيقية لقصائده، وكان مهتماً بمحاولة تدبير تذاكر لأشخاص اتصلوا به بعد أن نفدت البطاقات خلال ساعة من طرحها، وكان مهتماً بإيصال بطاقة لشاب يدير متجراً يتعامل معه في رام الله. وكان يتحدث عن برنامج الأمسية عندما قال : سأختتم بـ " لاعب النرد " ، فاعترضت وغسان، وقلنا : " حرام " أن يخرج الجمهور في أجواء حزينة كتلك التي ستولدها القصيدة. وناكفته ضاحكاً : لماذا لا تختتم بـ " سجّل أنا عربي "

الجديدة؟، فابتسم ووافق على قراءة "على هذه الأرض ما يستحق الحياة" ولكن ليس في الختام الذي خصّصه لـ "غيتارتان".

في أمسيته الأخيرة في فلسطين بدا متوهجاً، استقبله جمهور حاشد متحمس بالتصفيق وقوفاً لدقيقتين. وبعد الأمسية بدا منتشياً وراضياً.

انتصار "تفاوضي صغير"

وعندما توجهت إلى عمان في 27 تموز للالتحاق به والتوجه معاً إلى باريس، كان لا بد لتفاصيل من سريالية الحالة الفلسطينية أن تقترح نفسها، فعلى الجسر أبلغني الجنود الإسرائيليون أنني لا استطيع السفر لأن تاريخ ميلادي المسجل في بطاقة هويتي وجواز سفري يختلف عن التاريخ المحفوظ لديهم في جهاز الكمبيوتر. وعندما أكدت لهم أنني أعرف تاريخ ميلادي جيداً وأحتفل به كل عام وأنني سافرت، بتاريخ الميلاد نفسه، عشرات المرات خلال السنوات الماضية اصطدمت بردٍّ واحد: غير ممكن.

وبدأ مسؤولو الارتباط الفلسطيني اتصالاتهم دون بارقة أمل، وكان محمود، الذي ينتظرني للغداء مع الصديقين ياسر عبد ربه، وصبيح المصري، يتصل بين وقت وآخر ليطمئن، أخذت الساعات تمر وبدأت أشعر بالقلق من احتمال عدم تمكني من الوصول إلى عمان لركوب الطائرة التي تغادر فجر اليوم التالي. وكان هناك خيار غرائبي آخر . . أن أستصدر بطاقة هوية من دائرة الداخلية في أريحا بتاريخ الميلاد المسجل لدى الإسرائيليين لأتمكن من العبور ثم أقوم بتصحيح الخطأ وتثبيت التاريخ الحقيقي بعد عودتي.

ولكن وبعد ثلاث ساعات ونصف، وافق الإسرائيليون على أن أعبر هذه المرة "فقط" بتاريخ ميلادي المسجل في بطاقة الهوية وجواز السفر، وكانت الساعة تجاوزت الثانية والنصف عندما كنت أعبر الجسر وأبلغ محمود عَبر الجوال: لقد حققت إنجازاً تفاوضياً، وافق الإسرائيليون على الاعتراف بتاريخ ميلادي.

ولكن الوقت كان متأخراً لألحق بموعد الغداء.

في نهاية النهار الذي قضيناه في باريس، التقينا صبحي حديدي الكاتب الناقد، والصديق المقرب لمحمود لتناول العشاء على رصيف مطعم قرب الفندق الصغير الذي اعتاد محمود النزول فيه في حي سان جيرمان، واحتل موضوع العملية حيزاً كبيراً من الحديث.

وإذ كان محمود معروفاً بدقته الشديدة في ترتيب الأمور وإنجازها، فإن طبيعة رحلتنا هذه المرة جعلته يدقق بصورة أشد، فقد أصر، رغم نصائحي والإشارة لخبراتي، على أن نذهب إلى المطار في ساعة مبكرة جداً حتى لا تعيقنا أية إجراءات للتفتيش. فكان أن وصلنا إلى المطار في الساعة السابعة صباحاً، وكان أن وجدنا جميع الإجراءات تتم بسرعة قياسية، فنظرت إليه شامتاً وحانقاً وهو يبتسم عندما كنا نجلس في إحدى الصالات، وقد أنجزنا كل ما هو مطلوب من إجراءات، كي ننتظر إقلاع الطائرة بعد ثلاث ساعات كاملة.

و تأهّبنا في الطائرة الفرنسية المتجهة مباشرة إلى هيوستن لرحلة طويلة تستمر عشر ساعات في وقت غير مناسب للنوم. أخرجت رواية "واحة النخيل" لبهاء طاهر من حقيبتي وبدأت قراءتها. فتطلع محمود وأشاد بالرواية ثم انشغل بتقليب صفحات عدد من مجلة "وجهات نظر"، ولكني لاحظت انه يتجنب قراءات عميقة فلم يخرج أياً من عدة روايات مترجمة كان يحملها في حقيبة يده واكتفى بقراءة صحيفة "الهيرالد تريبيون". كان موعد المواجهة يقترب.

خلال ساعات الرحلة الطويلة، وفي الأوقات التي لم نتمكن فيها من النوم، تحادثنا حول أشياء كثيرة، عن مشاقّ السفر، عن تعثّر المفاوضات، عن أمسية رام الله، عن مغنّيه الأثير: محمد عبد الوهاب، عن حر ورطوبة هيوستن، عن شرائح اللحم (الستيك) التي تشتهر بها ولاية تكساس، وقمنا بـ "النميمة" الضاحكة على أصدقاء مشتركين. كنت أريد تجنب أي حديث عن العملية واحتمالاتها، وكنت أصدّ الموضوع برفق كلما أثير. هناك شيئان مؤكدان.. ستكون في أفضل مستشفى في العالم، وفي رعاية أفضل أطباء في العالم.

الدخول إلى صحراء هيوستن

وقد أثمرت توصية السلطة الفلسطينية فتم تسهيل وتسريع إجراءات الدخول في مطار هيوستن التي كنا نحسب لها كثيراً، واستقبلتنا لفحات الهواء الساخن اللزج ونحن ننطلق، وعلي حليلة، الذي كان بانتظارنا إلى الفندق في هذه المدينة الصحراوية مترامية الأطراف.

نزلنا في فندق يقع في شارع فانين، وبدأنا نكتشف أننا نقيم وسط منطقة واسعة تضم عدة شوارع تسمى المركز الطبي وتضم عشرات المستشفيات والعيادات، وكان منظراً عادياً أن نجد خلال سيرنا في الشوارع المحيطة بالفندق أطباء وممرضين بأرديتهم المميزة يتنقلون من مبنى إلى

آخر، ومن شارع إلى آخر إن لم يستخدموا جسوراً علوية مغطاة تصل بين عديد المراكز الطبية، وكنا نجد العديدين منهم، وقد خرجوا إلى الشوارع لتدخين السجائر في مدينة، كبقية المدن الأميركية، تحظر التدخين في المباني والفنادق والمقاهي والمطاعم .

وعلمنا أن "صناعة" الطب في هيوستن. وهي من أهم مدن ولاية تكساس وتمتد على مساحات شاسعة وتعد بملايينها الأربعة رابع أكبر المدن الأميركية، تشغل 70 ألف شخص وتجذب لمستشفيات المدينة آلاف الباحثين عن العلاج من مختلف دول العالم، . وكان الفندق الذي أقمنا فيه تابعاً لشبكة ماريوت الشهيرة ويحمل اسم "ماريوت المركز الطبي" وتؤدي إحدى طرقاته الداخلية إلى مستشفى مجاور، في حين يقودك جسر مغطى كي يحميك من الحر والرطوبة إلى مركز طبي آخر. وكنا نرى الكثيرين من المرضى العرب والأوروبيين والآسيويين في ردهات فندقنا الذي تؤدي إحدى طرقاته الداخلية إلى أحد المستشفيات.

وعلمنا أن الفضل الكبير في نمو وتطور "صناعة" الطب والعلاج في المدينة يعود إلى طبيب القلب الشهير مايكل دبغي اللبناني الأصل، وأن حازم صافي هو أحد تلاميذ دبغي الذي توفي قبل ثلاثة شهور عن 99 عاماً.

وبما تتطلبه وتنميه الهندسة من ملكات، كان علي قد استكشف المحيط وابلغنا أن المستشفى الذي ستجري المراجعات الطبية فيه يبعد عن الفندق مسيرة خمس دقائق على الأقدام. وإذ حلّ محمود في الغرفة رقم 1118 متوسطاً غرفتينا، فقد توجهنا مساءً لتناول شرائح من ستيك تكساس الشهير.

وفي ظهيرة يوم الأربعاء قادنا علي سيراً على الأقدام إلى مستشفى ميموريال هيرمان، وكان لقاؤنا الأول مع منسّقة الفريق الطبي للدكتور صافي. ووجدنا أنفسنا أمام منى غزال وهي سيدة لبنانية درست الطب، ولم تمارسه، وتثير انطباعات قوية لدى محاوريها بدقتها وكفاءتها. ولم تضع منى دقيقة واحدة فبدأت بالحديث بالتفصيل عن وضع الشاعر الصحي من خلال التقارير التي كان بعثها. وتحدثت عن العملية المرتقبة، وأبلغت محمود بأن موعد إجرائها تحدد يوم الاثنين القادم. كان محمود يبتلع المفاجأة وهو يعلق: بهذه السرعة، وعندما ذهب ومنى للقاء قصير مع الدكتور صافي كان موعد العملية قد ثُبّت . . يوم الاثنين القادم (4 – 8) .

وعندما كانت منى تزودنا بالتفاصيل، اكتشفنا أن طاقم الأطباء المشرف، بجانب الدكتور

صافي، الذي أجرى نحو ثلاثة آلاف عملية ناجحة في الشرايين. يضم مازن غانم وهو طبيب فلسطيني لامع هاجر وهو في السادسة مع عائلته من رام الله إلى هيوستن قبل أكثر من أربعين عاما، وأن مسؤول العناية المكثفة طبيب سوري ونائبه لبناني أما طبيب الأعصاب فعراقي.

وهتف محمود: ألا يوجد أميركيون في هذا المستشفى؟

فردت منى ضاحكة: هناك طبيب التخدير وأفراد طاقم التمريض.

وبعد لقاءات استمرت نحو ثلاث ساعات نهضت منى: الآن سنبدأ الفحوصات. وأبلغت محمود: سأكون معك منذ الآن وحتى تغادر هيوستن بالسلامة.

وعندما سرنا مسافات طويلة في الردهات الرابطة بين أقسام المستشفى متوجهين إلى مختبر لإجراء فحص دم، تساءل محمود: ألسنا مستعجلين ؟

فتوقفت منى عن السير وقالت: أستاذ محمود، إذا شعرت أننا نتعجل الأمور يمكن أن نتوقف وأن نؤجّل كل شيء، أنت لست في وضع صحي طارئ.

لكن الشاعر كان قد اتخذ قراره: لنستمر.

وخلال أيام الأربعاء والخميس والجمعة أجرى محمود الفحوصات المتعددة اللازمة للعملية وأهمها مع طبيب القلب مازن غانم الذي أبلغنا أنه ينتظر نتائج التحاليل والصور قبل إصدار حكمه على مدى قدرة القلب على تحمّل إجراء عملية جراحية كبرى في الشريان الأبهر.

هل أنت the محمود درويش؟

كنا حريصين خلال إقامتنا في هيوستن على حصر اتصالاتنا "الاجتماعية" في مدينة تضم عشرات آلاف الفلسطينيين والعرب في أضيق نطاق ممكن، فلا وقت ولا مزاج للنشاطات الاجتماعية. ولكن كان مستحيلاً ألا يهتف شاب فلسطيني في أحد أقسام الاستقبال في الفندق مرحباً بفرح بـ "شاعرنا الكبير" عندما لمح محمود لنكتشف أنه قدم قبل شهر فقط من نابلس للالتحاق بشقيقه والعمل في هيوستن، ولم يكن ممكناً للشاعر إلا أن يتوقف ونحن نسير في أحد المجمعات التجارية عندما توقف أمامه شاب ذو ملامح عربية ليسأل بتهذيب شديد: الأستاذ محمود درويش؟، فيرد محمود بالإيجاب، ويسأله عن جنسيته فيجيب بأنه طالب سعودي، ويحيي الشاعر ثم يمضي في طريقه، أو أن نواجه بنظرات دهشة من فتاة عربية، سودانية الأب

وسورية الأم، تعمل في أحد أقسام المستشفى وهي تنقل عينيها بين أوراق في يديها وبين الشاعر لتسأل بتردد: هل أنت the محمود درويش؟.

وإذ كنا نقضي أغلب أوقاتنا في الفندق، إلا عندما نذهب لتناول العشاء في أحد مطاعم المدينة، فقد راقب محمود ساخراً وشامتاً فشل محاولاتي المتكررة وأنا أسأل أشخاصاً عديدين عن كيفية إيجاد الصحف العربية الدولية اليومية في هيوستن، وهو الذي يتهمني دوماً بأنني أحرص وقبل كل شيء على شراء "كيلو" من الجرائد كل صباح عندما أكون مسافراً خارج البلاد، وراقب ضاحكاً فشلي عندما أبلغتني إدارة الفندق بأنه لا يمكن تقنياً أن توفر لنا مشاهدة محطتي "الجزيرة" و"العربية" على أجهزة التلفزيون في غرفنا.

غير أن فشلي المتلاحق كان مفيداً، فقد رحم الشاعر ووفر عليه أن يشاهد وأن يقرأ بالتفصيل، في أيامه الأخيرة، الفصول المخزية والمحزنة للصدامات التي شهدها حي الشجاعية بغزة في تلك الأيام.

وتسرّب خبر وجود محمود إلى عدد محدود من العرب في هيوستن عَبر أصدقاء مشتركين في عمان ورام الله أرادوا أن تتوفر للشاعر كل عناية ممكنة، وعندما لبينا، يوم الجمعة، دعوة فاروق العطّار المهندس العراقي، وزوجته الفلسطينية ريما السختيان من نابلس، المقيمين منذ نحو أربعين عاماً في هيوستن، إلى حفل عشاء فوجئ محمود وعلّق ضاحكاً: كان هناك 50 مدعواً بينهم 60 طبيباً.

وفي تلك الأمسية كان جميع الحضور يلتقون للمرة الأولى في حياتهم الأسطورة الحية، وكانت هناك كلمات مؤثرة لمدرسة جامعية فلسطينية تقيم في هيوستن عندما تحدثت لتصف ما يعنيه محمود درويش لهم "كيف جعلتنا نعتز بفلسطينيتنا وعروبتنا، وكيف علمتنا أن نحب وطننا". وكان لافتاً في هذا الحشد الذي ضم فلسطينيين ولبنانيين وسوريين ومصريين وعراقيين تتوزع قصص نجاحهم في الغربة الأميركية بين الطب والتجارة والصناعة أن بعضهم كان من الشباب الذين ولدوا في هذه المدينة وكانوا حريصين على أن يقتربوا ويتعرّفوا على الشاعر النجم.

وبدا محمود الذي يضيق عادة بالأعداد الكبيرة مرتاحاَ ومنسجماَ خاصة مع الجيل الشاب. وكان لزاماَ عليه أن يجيب عن أسئلة معتادة حول الأوضاع الفلسطينية، فكان أن أبدى مخاوفه الشديدة على المشروع الوطني، وإذ أعاد انتقاداته لاتفاق أوسلو، عبّر عن تشاؤمه بإمكانية

التوصل إلى شيء في المفاوضات بسبب الموقف الإسرائيلي، وأعاد في الوقت نفسه تأكيد موقفه الحاسم ضد الأصولية والظلامية متحدثاً بمرارة عمّا ألحقته وقائع انقلاب غزة من تشويه بالشخصية الفلسطينية ومن إضرار بالقضية الوطنية.

واستقطع محمود خلال السهرة وقتاً للحديث عن جراحته المقبلة مع ماهر ناصر وهو طبيب لبناني لامع يعمل في هيوستن منذ عقود ويقترن بالفلسطينية فاطمة الدجاني من غزة، ومع طبيب آخر هو العراقي عزيز الشيباني الذي اكتشفنا أنه طبيب الأعصاب في فريق الدكتور صافي.

غير أن اتصالاً جاءني من الدكتور مازن غانم خلال العشاء كان مقلقاً جداً لمحمود. قال غانم إن نتائج تصوير قلب الشاعر أظهرت انسداداً في شريانين رئيسيين ما يتطلب إجراء "قسطرة" للتعرف على وضع القلب قبل إجراء العملية، وهو ما كان يخشاه محمود الذي كان يتحدث كثيراً عن مخاطر "فرقعة" الكولسترول المحتملة خلال إجراء القسطرة وتناثره وصولاً إلى الدماغ.

كان هذا مصدر خوف محمود الأساسي، وفي حين أصبح أقل قلقاً من العملية الجراحية في الشريان، فقد أصبح مسكوناً بقلق شديد إزاء "القسطرة".

وعندما دعانا مازن غانم وعقيلته، مساء السبت، إلى عشاء في غرفة خاصة في مطعم جميل، بحضور الدكتور صافي ومساعده انتوني الفلبيني الأصل وعقيلتيهما، فإن الحديث دار حول مواضيع كثيرة كان أقلها حظاً العملية المنتظرة، تحدث مازن وزوجته بفرح عن ابنيهما اللذين يقضيان إجازة صيفية ممتعة في رام الله، وتحدث صافي عن ذكرياته العراقية وعن والده المقيم في عمان، ودارت الأحاديث عن فلسطين والعراق وإسرائيل واوباما وماكين ومايكل دبغي والأدب والشعر ونعوم تشومسكي. وعندما تطرق محمود إلى "القسطرة" رد مازن، الذي سيجريها يوم الثلاثاء، ضاحكاً، باللهجة العتيقة لأهل رام الله: أستاذ محمود.. أنت خايف من "الخريص" (السلك) تبعي، ومشْ خايف من العملية الكبيرة؟.

وبدا محمود بعدا لعشاء مرتاحاً، وأقلّ قلقاً.

وحاولت وعلي، خلال أيام انتظار "القسطرة"، اقتراح القيام بنشاطات محددة، لكن محمود لم يكن متحمساً، ولكننا نجحنا بإقناعه ذات صباح، قبل أن يشتد الحر والرطوبة، بالسير نحو نصف ساعة إلى حديقة في نهاية شارع الفندق، حيث جلسنا هناك لنصف ساعة أخرى. واقتنع بناء على إلحاحنا بالذهاب مرتين إلى "غاليريا مول".

وعندما كنا نسير قرب فرع لمكتبة "بوردرز" في المجمع التجاري الضخم، اقترحت عليه دخولها للبحث عن دواوينه المترجمة إلى الانجليزية، والتي ترجمها فادي جودة (ابن عائلة فلسطينية هجرت من اسدود في عام النكبة) وهو طبيب شاب يعمل في هيوستن، وهو أيضاً يكتب الشعر باللغة الإنجليزية، وفاز مؤخراً، بجائزة من جامعة أميركية مرموقة على ديوانه الأول، ولسنوات كانت علاقته بمحمود عبر الهاتف فقط، وكان لقاؤهما الأول والأخير في هيوستن عندما جاء لمقابلة محمود وقضينا معاً عدة ساعات.

تردد محمود في الاستجابة لاقتراحي: ستجد هنا الكتب الأكثر مبيعاً في أميركا، لن تجد دواوين الشعر.

وعندما كنا نتفحص قسم الشعر لم نجد دواوين محمود، لكن علي كان قد توجه إلى موظف المكتبة يسأل عن دواوين درويش، ليجدها الموظف له على جهاز الكمبيوتر جاهزة لإحضارها عند الطلب، وصافح الموظف الشاعر بحرارة عندما عرف انه صاحب هذه الدواوين. واقترحت عليه: لنطلب شراء أربع نسخ من كل ديوان لإهدائها للأطباء الرئيسيين بعد العملية. فرد بسرعة: بعد العملية.. بعد العملية.

"هيوستن.. لدينا مشكلة":

في انتظار "القسطرة" و "إدوارد"

وفي يوم الأحد توجهنا مساء إلى مدينة غالفستون الواقعة على خليج المكسيك، والتي تبعد 80 كيلومتراً جنوب هيوستن، حيث يمكن مشاهدة مصافي النفط، والمنصات البحرية حيث تنتج تكساس 22 % من النفط الأميركي. غير أن التجربة كانت محبطة عندما وجدنا مياهاً بألوان قاتمة، وعلمنا أن رؤية اللون المألوف لمياه البحر تحتاج إلى الإبحار خمسين كيلومتراً في عرض البحر، وعندما لم نجد أماكن في عدة مطاعم مزدحمة بالمتنزهين في عطلة نهاية الأسبوع توجهنا إلى كيما وهي مدينة مجاورة أخرى لتناول طعام العشاء في أحد مطاعمها.

في طريق العودة إلى هيوستن كانت اللوحات الإرشادية الضخمة على جانبي الأوتوستراد، الذي يمكن منه رؤية منشآت وكالة ناسا الفضائية الأميركية على بعد، تعلن: هناك عاصفة استوائية في طور التكوين.

وكان أن بدأنا نعيش تجربة تعرض منطقة أميركية إلى إعصار تحدد موعد وصوله إلى هيوستن يوم الثلاثاء، موعد إجراء القسطرة. وعلى شاشات المحطات الإخبارية المختلفة كان موضوع إعصار "إدوارد" القادم هو الخبر الرئيسي وموضوع المؤتمرات الصحافية المتلاحقة للمسؤولين في المدينة والولاية على مدار الساعة، و ذكرنا إقبال الأميركيين على المتاجر لشراء وتخزين السلع بتدفق المواطنين في مدن الضفة لتخزين السلع قبيل الاجتياحات الإسرائيلية وحظر التجول، وكانت الشرائط الإخبارية للمحطات تحمل عشرات الإعلانات عن إلغاء نشاطات وبرامج في العديد من الجامعات والمراكز بسبب الإعصار المنتظر، وتحذيرات من السير في شوارع معينة، وكان مذيعو النشرات الجوية هم النجوم الذين لا يغيبون عن شاشات التلفزيون ليقدموا للمشاهدين توقعاتهم عن درجة قوة الإعصار والأماكن التي ينتظر أن يضربها.

أفكر بكتابة وصيتي

وخلال تلك الأيام، كانت هواتفنا الخلوية، نحن الثلاثة، لا تكف عن الرنين، كان العشرات يتصلون باستمرار للاطمئنان على سير الأمور، اتصالات من رام الله والجديدة وحيفا وعمان وبيروت وباريس والقاهرة ولندن وتونس وغيرها من عواصم ومدن العالم.

وفي تلك الأيام، كان محمود يكافح هواجسه ومخاوفه بالمزاح مع الأطباء والممرضين عند إجراء الفحوصات، وبالسخرية السوداء أحياناً مع أصدقاء، وفي أحيان كثيرة كان يُعبّر لهم عن قلقه الشديد من القسطرة واحتمالات تناثر الكولسترول، ولكنه كان، رغم القلق، هادئاً ودافئاً ومرحاً وهو يرد على الاتصالات الهاتفية، ولم ينس أن يتصل بالجديدة ليطمئن على سير زفاف ابنة شقيقه زكي.

وذات صباح هبط "نؤوم الضحى" مبكراً إلى لوبي الفندق، حيث اعتدنا الثلاثة أن ننتظر بعضنا البعض لتناول الإفطار، وألقى التحية ثم ذهب ليحضر فنجان قهوة من متجر خاص في اللوبي ليعود ويبلغنا متجهماً: الليلة زارني معين.. الليلة حلمت بمعين بسيسو.

وموت معين، في الثمانينيات، كان لافتاً بمأساويته عندما ذهب للنوم في غرفة فندق في لندن بعد أن علق على بابها لافتة: رجاء، عدم الإزعاج. وتوفي، ومضت ساعات على وفاته قبل أن يفتح موظفو الفندق الغرفة ويكتشفوا ما حدث.

وعندما افتقدنا، بعد وصولنا بأيام، اتصالات منى غزال المثابرة من المستشفى استفسرنا فكان السبب صادماً لمحمود المتطير. . لقد توفيت والدتها. فهمهم الشاعر: انه فأل سيئ.

وفاجأنا محمود ذات مساء ونحن، ثلاثتنا، نتناول طعام العشاء في مطعم للأسماك: أفكر في أن أكتب وصيتي.

فقاطعناه على الفور طالبين منه بمزيج من الجد والهزل أن ينبذ هذه الأفكار، وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

هل كنا على خطأ؟.

أمسية العشاء الأخير

وعندما قدم الدكتور ماهر ناصر إلى الفندق من عيادته القريبة، ليدعو الشاعر إلى "وجبة ملوخية خضراء" على العشاء يوم الاثنين، قال محمود الذواقة الصعب والطباخ الماهر لعدة أكلات: ولكن لتحرص المدام على عدم استخدام "الكزبرة"، انه خطأ فلسطيني ولبناني شائع.

وعندما ذهبنا مساء لتناول العشاء كانت ربة البيت، المهمومة بانتظار حكم الشاعر، قد أعدت مائدة عامرة بأصناف شهية عديدة فبادرها محمود ضاحكا: يبدو أنك طبخت أصنافا كثيرة لتشتتي انتباهي عن الملوخية.

كان هذا العشاء الأخير لمحمود درويش قبل أن يدخل المستشفى.

كان عشاءً طيباً وأمسيةً رائقة، وبدا محمود مسترخياً وجذلا وهو يجلس بين مدعوين محدودي العدد. وأجاب عن أسئلة حول شعره، وروى طرفتين، واستمعنا من "مواطني" هيوستن لذكريات عن الأعاصير التي ضربت المدينة سابقاً، وكيف غمرت المياه خلال إعصار "ريتا"، الذي ضرب المنطقة العام 2005، الطبقات السفلى لأحد المستشفيات الكبرى في الشارع الذي نقيم فيه فخرب أوراقا وأبحاثاً لطلبة جامعيين، وقضى على حيوانات للتجارب في المختبرات. وحذر ماهر من أن هناك احتمالاً بأن لا تتم "القسطرة" (غداً) لأن معظم العاملين قد يتغيبون عن العمل بسبب الإعصار المنتظر.

غير أن اتصالاً هاتفياً من المستشفى أيقظنا الساعة السادسة من صباح الثلاثاء أكد على الموعد.

فتوجهنا الساعة التاسعة بالسيارة، اتقاء لأمطار كانت تهطل منذرة بالإعصار، إلى معهد الأوعية والقلب لمستشفى ميموريال هيرمان لنجده شبه خال، وأبلغتنا الممرضة النشطة، التي أجرت الاتصال الهاتفي، أن 80 % من المواعيد مع المرضى ألغيت بسبب المخاوف من الإعصار، وبدا وكأن المستشفى مفتوح للشاعر فقط.

رافقنا محمود خلال فترة إعداده للقسطرة، ثم جلست وعلي ننتظر في صالة قرب غرفة العمليات، عندما قدم ممرض بعد 52 دقيقة يبلغنا باستدعاء الدكتور غانم لنا. كانت الأخبار مفرحة، لم "يفرقع" الكولسترول و"لم يتناثر"، وكان محمود يستمع معنا وهو ما زال على السرير في حالة إعياء لتقرير غانم: هناك شريانان رئيسيان مغلقان بنسبة كبيرة، لكن هناك شرايين صغيرة أخذت تتفتح وتعوض عمل الشريانين.

ثم أطلق الطبيب حكمه: القلب جاهز لإجراء العملية غداً.

كانت هواتفنا النقالة لا تتوقف عن الرنين، وأخذنا ننقل بسعادة الأخبار المفرحة إلى المتصلين من مدن عديدة في العالم: مرت "القسطرة" بسلام، ولم يحدث ما كان يخشاه محمود، لم "يفرقع" الكولسترول.

غير أني عندما أبلغت محمود وهو ينقل من غرفة العمليات إلى غرفة عادية أن الياس خوري المبتهج يتصل من بيروت وسيذهب للاحتفال بنجاح القسطرة، قال لي: قل له أن يؤجل الاحتفال إلى ما بعد عملية الغد.

"خلص، بكفي لحد هون"

وعندما ذهبت وعلي إليه في المساء كان محمود أصبح مسكوناً بهواجس الخوف من العملية الكبيرة، والممرضون يتناوبون على الدخول لإجراء بعض الفحوصات الضرورية للعملية.

قلنا له: كنت خائفاً من "الخريص" وها كل شيء مرّ بسلام. ولم تكن خائفا من العملية الكبيرة.

ورددنا: أنت في أفضل مستشفى في العالم، وفي رعاية أفضل أطباء في العالم.

فقال: "القسطرة" كانت ذبابة في صحن طعامي، أما عملية غد فشيء آخر.

قلت له: ستمر بسلام، ويمكنك بعدها أن تكتب قصيدة جديدة بعنوان: ذبابة في صحراء

تكساس.

ودوت ضحكته العميقة في أرجاء الغرفة.

كانت تلك ضحكته الأخيرة.

في يوم العملية، ذهبنا إليه في التاسعة من صباح الأربعاء، كان خطر الإعصار قد تلاشى، ووجدنا محمود متعباً بعد ليلة أبلغنا أنه لم ينم خلالها جيداً حيث كان الممرضون يعدونه للعملية. تحدثت وعلي معه بكلمات مشجعة، تناول نظارته وساعته وناولهما لعلي. دخل إلى الغرفة الممرض الذي سينقله إلى غرفة العمليات فسألت: إلى أي مدى يمكن أن نرافقه؟.

وقبل أن نستمع إلى رد الممرض كان محمود يقول: خلص، بكفي لحد هون.

كانت هذه كلماته الأخيرة.. لنا.

خرجنا بخطوات بطيئة ونحن نلوح له ونطلق عبارات: ما تطوّلش، بدنا نحتفل، إن شاء الله كل شي تمام.

كنا أنا وعلي ومجموعة صغيرة من فلسطينيي وعرب هيوستن ننتظر بقلق في صالة واسعة عندما خرج الدكتور صافي ومساعده انتوني باردية غرفة العمليات في الساعة الثالثة بعد الظهر يحملان الأخبار الجيدة: العملية نجحت.

ووسط لهفتنا وفرحنا وعناق بعضنا للطبيب صافي، أبلغنا بأن العملية نفذت في وقت قصير نسبياً، وأن عملية إزالة الجزء المصاب واستبداله تمت في زمن قياسي لا يتجاوز 22 دقيقة فقط ما يقلّص احتمالات تعرض المريض للأخطار.

بدأنا بثّ الأخبار المفرحة إلى عائلته، وإلى جميع المتصلين القلقين حول أنحاء العالم، غير أننا حرصنا على عدم إصدار أي خبر رسمي عن نجاح العملية. ولم يكن هناك من سبب لذلك غير الحرص على استنفاد الـ 72 ساعة الأولى بعد العملية والتي يمكن أن تكون حرجة بالمقاييس الطبية.

وعندما ذهبنا لتناول طعام عشاء احتفالي تلك الليلة، بدأت وعلي نحسب كم سيحتاج محمود من أيام نقاهة في هيوستن قبل أن يسمح له بالسفر، بل وبدأت أخطّط لمغادرة المدينة بعد أربعة أيام حيث سيكون محمود، كما كنا نفترض، قد نقل إلى غرفة عادية في المستشفى قبل عودته للفندق، وأخذنا نخطّط لترتيب من سيكون مع محمود من أصدقائه إذا غادر أي منا هيوستن.

كان كل شيء يبدو على ما يرام .

في صباح يوم الخميس خرجت مبكراً إلى رصيف الفندق لتدخين سيجارة فصادفت الدكتور ماهر ناصر . أبلغني أنه كان يزور محمود، وبدا صوته قلقاً وهو يقول إنه لا يُحرّك أطرافه . ولكنه هدّأ مخاوفي عندما قال إن ذلك قد يكون نتيجة التخدير وعلينا أن ننتظر .

هرعت وعلي إلى المستشفى على الفور ووجدنا حشداً من الأطباء يتقدمهم صافي أمام الغرفة رقم 24 في قسم العناية المكثفة، غرفة محمود، شعرت بالرعب ثم طمأنت نفسي : ربما كانت الجولة الصباحية الروتينية للأطباء لفحص مرضاهم .

قال الدكتور صافي : لقد حرّك أحد أطرافه، أمس .

وحثّنا وأنتوني : تحدثوا معه، هذا سيحفّزه .

دخلنا الغرفة حيث محمود على سريره وسط الأنابيب والأجهزة . نادينا :

محمود . . محمود . . فتح عينيه وتطلّع نحونا دون أن يحرك رأسه .

كانت إشارة مفرحة لنا، فواصلنا المناداة وإطلاق بعض العبارات .

وخلال ذلك اليوم، الذي قضيناه في صالة الانتظار الواسعة أمام بوابة قسم العناية المكثفة، تناوب عدد محدود على الدخول إلى غرفة محمود والتوجه بالحديث إليه عن ذكريات وأسماء معينة لتحفيزه على الاستيقاظ، وشجعت فادي جودة عندما اقترح أن يقرأ للشاعر بعض قصائده، لكن الوقت لم يسمح بتنفيذ الفكرة .

كانت إجاباتنا على عشرات الاتصالات الهاتفية : يجب أن ننتظر مرور 48 ساعة، وإن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام .

كنا نحاول أن نهدئ قلق الآخرين وقلقنا وهواجسنا .

غير أن النذر السيئة بدأت تتكشف سريعاً .

أبلغنا الأطباء في ساعات الظهيرة أن هناك حاجة لإجراء عملية لاستئصال "القولون" بعد أن أصيب بزخّات من الكولسترول . وأجرى علي اتصالاً مع عائلة محمود في الجديدة لأخذ موافقتها قبل أن يبلغها للأطباء فيجروا العملية بعد الظهر .

وعندما قابلنا بعد الظهر الدكتور الشيباني، طبيب الأعصاب، أخبرنا بعد إلحاح بالأنباء التي كان محمود ونحن نخشاها : لقد تناثرت زخّات من الكولسترول، وسبّبت بعض الجلطات في

الدماغ، وفي بعض المناطق الأخرى من الجسم.

وواصل: إن هذا لا يعني تعطل الدماغ، بعض الخلايا أصيب، والباقي ما زال يعمل.

وجرؤت أن أسأله: ما هي نسبة النجاة؟

فتردّد قبل أن يُطلق جوابه الصاعق: 10%.

وعندما استدعانا الدكتور صافي ومساعده بعد ذلك، إلى غرفة اجتماعات صغيرة ملحقة بصالة الانتظار، أخبرنا وهو يتطلع في وجوهنا المرهقة وعيوننا المسكونة بالجزع: مرّت عليّ خمس حالات أصيب فيها المرضى بنفس مرض محمود بجلطات في الدماغ بعد العملية، ولكن وبعد شهر من العلاج خرجوا يمشون من المستشفى. كونوا أقوياء، لا أريد مرضى آخرين، نحن نخوض معركة قد تستمر أسابيع.

لم ننقل الأخبار الصعبة لأحد كما هي، بدأنا نقول: إن هناك مضاعفات للعملية، والوضع ليس سهلاً، وإن علينا أن ننتظر. غير أن عديدين كان بإمكانهم وبسهولة قراءة الخطورة في نبرات أصواتنا.

كان يوم الجمعة (٨ آب) طويلاً. . . وطويلاً جداً.

قضينا معظم ساعات النهار في صالة الانتظار وانضمّ إلينا الدكتور باسل جواد، وهو طبيب عراقي يعمل منذ عقود في مدينة فيلادلفيا، ومقترن بعلياء شقيقة علي حليلة، وحضرا خصّيصا لزيارة محمود الذي يعرفانه جيداً، وكانا يتوقعان أن تكون زيارة للاطمئنان والتهنئة. وكان وجود الأطباء ماهر وباسل وفادي يساعدنا كثيراً في فهم ما يدور.

وخلال تلك الساعات كان البعض يتوجه إلى غرفة محمود بين حين وآخر. . لم تكن هناك أخبار جديدة. وفي جلسات مع أنتوني والشيباني كنا نتأكد من خطورة الوضع.

وكانت لنا أسئلة خاصة: هل يشعر الآن بالألم؟

فكانت الإجابة: لا.

وكان هناك سؤال آخر: هل محمود في حالة موت سريري؟

وكانت الإجابة: لا.

وكان هناك سؤال ثالث: هل يسمعنا عندما نتحدث إليه؟

فكانت الإجابة: لا نعرف، ربما، ليس بإمكان أحد تأكيد أو نفي هذه الإمكانية.

وكانت هناك أسئلة تفصيلية عن التوقعات المحتملة، فقد كان هَمُّ الجميع أن يخرج محمود من المستشفى كما دخله، وكما كان دائماً، بهياً وقوياً ومتألقاً ليواصل الحياة وكتابة الشعر.

وكان أن طلبنا اجتماعاً مع الدكتور صافي تحدد في صباح اليوم التالي.

وعندما بدأت الاتصالات القلقة تتزايد كان ردنا: الوضع صعب . . صعب جداً، الأطباء يقومون ببذل كل جهودهم، ولا نملك سوى الدعاء.

وبقي القلب صامداً

وحده حتى اللحظة الأخيرة

وفي صباح اليوم التالي، توجهنا بعد ليلة مرهقة إلى المستشفى التاسعة صباحاً لحضور الاجتماع ففوجئنا بأن محمود نُقل إلى غرفة العمليات. وبعد وقت قصير استدعانا الدكتور صافي إلى غرفة الاجتماعات وأبلغنا الأخبار السيئة.

كانت زخّات الكولسترول المتناثرة قد ضربت معظم أجهزة الجسم، ولم يكن هناك الكثير مما يمكن عمله إلا بعمليات استئصال جديدة لا تجدي نفعاً، وكان القرار أن يتم تشغيل الأجهزة للقيام بعمل أجهزة الجسم التي تعطّلت أو تكاد.

عدنا مصعوقين إلى غرفة الانتظار. كان البعض يمسح دموعه، والبعض الآخر واجماً، والجميع صامتاً. وعندما أذاعت محطة "الجزيرة" خبراً عن وفاة محمود، انهالت اتصالات وكالات الأنباء ومحطّات التلفزيون، وكان ردنا: إنه ما زال على قيد الحياة، هو في وضعٍ خطر، وخطرٍ جداً، ولكنه لم يمت.

في ساعاته الأخيرة كانت جميع أجهزة جسم الشاعر قد تعطّلت إلاّ قلبه المزدحم بالأشعار والأغاني والحب، فقد بقي ينبض بشكل طبيعي حتى اللحظة الأخيرة: الساعة 35، 1 بتوقيت هيوستن (35، 9 مساءً بتوقيت القدس) ظهيرة يوم السبت التاسع من آب 2008 عندما توفي الشاعر.

لم يتألّم، ورحل بهياً متألقاً كما عاش، وكما كان يرغب أن يموت.

ووسط دوامة الحزن الصاعق والمهمة الثقيلة لنقل الأخبار المحزنة إلى عائلته وأصدقائه، كان

علينا أن نهتم بترتيبات قاسية أخرى، وقررت وعلي أن نفتح حقائب محمود، لعلّه كتب وصية، لعله حدد مكان قبره. ولكن لم نجد في حقيبته الصغيرة سوى ثلاثة كتب ومجموعة أوراق كتب عليها أرقام هواتف، وانهمكنا في متابعة أمور ضرورية: نقل الجثمان (أصبحنا نتحدث الآن عن الجثمان) من المستشفى إلى دار الموتى، الأعداد لأداء الصلاة عليه في أحد مساجد المدينة، استخراج الأوراق الرسمية الضرورية في وقت بدأت فيه عطلة نهاية الأسبوع، والاتصال المتواصل مع رام الله لترتيب إجراءات نقل الجثمان، ومهمة شديدة القسوة تتمثل في أن ننتقي التابوت الملائم لمقاييس الطائرة التي ستنقل الجثمان.

وكانت رحلة العودة صباح يوم الثلاثاء (12 آب) هي الرحلة الأصعب على النفس. ففي طائرة كبيرة وفرتها دولة الإمارات العربية المتحدة جلست ورفيق الحسيني راكبين وحيدين في رحلة نقل الجثمان التي استغرقت 15 ساعة للوصول إلى عمان ومنها بالمروحية العسكرية الأردنية إلى رام الله.

كل هذا الحب لك

تمر مشاهد الوداع الطويل لمحمود درويش متلاحقة، فمن تجمع مئات من فلسطينيي وعرب هيوستن في "الجامع الكبير" لأداء الصلاة على الجثمان بعد صلاة الظهر في اليوم التالي لوفاته، وفي قاعة واسعة مساء اليوم نفسه لحضور حفل تأبين، إلى مسيرات الشموع الحزينة وقراءة القصائد في عدة مدن فلسطينية وعربية إلى الاستقبال في عمان، فالعودة إلى رام الله حيث الجنازة الرسمية والشعبية الضخمة.

لم يحدث في التاريخ أن ودّع شعب شاعراً مثلما ودّع الشعب الفلسطيني محمود درويش.

وربما كان كثيرون ممن شاركوا في وداع درويش في مختلف الأماكن لم يقرأوا كثيراً من قصائده، ربما كان البعض يعرفه من خلال قصائده المغناة، أو من خلال مشاهدة أمسياته الشعرية على شاشات التلفزيون، ولكن وعند النظر والتحديق في الوجوه والعيون، وخاصة لدى الكثرة الغالبة من الشبان والشابات، كان يمكن تلمّس لوعة الفقد الشخصي وفجيعة الخسارة الوطنية الفادحة.

كأن كل واحد يشعر أنه خسر صديقاً عزيزاً عليه، وأن الوطن فقد أحد ألوانه، وأن فلسطين فقدت عاشقها الأكبر الذي علمنا كيف نحتفي بمفاتنها، وأن جداراً كانت تستند إليه أرواحنا المتعبة قد انهار، أو أن زهر اللوز لن "ينوّر" بعد الآن، كان هناك إحساس بفقد عنوان لليقين في زمن المخاوف الكبرى على القضية والوجود، وبغياب نبع متجدد للأمل في وقت اليأس.

■■■

في مقامه الجديد فوق ربوة جميلة تطل عن قرب على "الأيام" يرقد محمود درويش. وإلى القبر يتوافد الكثيرون كل يوم. يهبط العشرات من حافلات قادمة من الناصرة وحيفا ويتجهون نحو القبر يتلون آياتهم ويؤدّون صلواتهم. يقف مدرّس يتحدث لتلاميذه عن الشاعر الراحل، يُحدق شبان وشابات مُطولاً في الأفق البعيد، تلمع سبع سنابل فوق القبر، وتتناثر باقات وأزهار وورود بشكل فوضوي، تقف فتاة وحدها تشغل جهاز تسجيل، فهي تريد أن يستمع الشاعر إلى قصيدته التي غنتها ماجدة الرومي لأول مرة بعد رحيله، ويتقدم رجلٌ ليضع وردة بناءً على طلب مارسيل خليفة، ويسأل شابٌ والده المجرب: متى تزهر شقائق النعمان ليحمل بعضها ويضعه فوق القبر؟ وينفذ خالد الحروب وعده لمحمود، فعندما التقاه قبل السفر إلى هيوستن قال خالد إن ديوانه الشعري الأول والأخير سيصدر في القاهرة خلال أيام، وفيه قصيدة بعنوان "شكوى إلى ساحرة الشعر" يشكو فيها للساحرة استئثار محمود درويش بسحر الشعر وكأنه بإبداعاته المتتالية من الشعر الصافي يجعل من الصعب على أي كان أن يكتب شعرا. وعندما وصل الديوان إلى رام الله بعد الرحيل حمله خالد إلى القبر ليقرأ "الشكوى" ويبر بوعده.

قد يصحو محمود قليلاً ليعاتبنا: ألم أقل لكم أريد جنازةً هادئةً، وخطاباتٍ قصيرةً. وقد نناكفه: الآن أنت لست لك، لست لك، لست لك. وقد يستعرض محمود شريط وداعه الطويل، وقد يقول بخجلٍ وتواضعٍ صادِقَيْن: أكلُّ هذا الحبِّ لي؟، وقد يتصل بناشره في بيروت ليقول له: في الطبعة الجديدة، غير السطر المتكرر في قصيدة "على هذه الأرض" ليصبح: على هذه الأرض شعب يستحق الحياة.